

قوة على اللوم، وإذا أنا راضية عن هذه الحال الجديدة رضا عميقاً قد مزج نفسي واختلط بدمي، ولكنه في الوقت نفسه رضا حزين ليس فيه ابتهاج ظاهر، وإنما هي حياة الخادم التي اطمأنت إلى ما يلم بها من الأحداث، ومضت في حياتها لا تنكر شيئاً ولا تعرف شيئاً، وإنما هي مستسلمة تذهب وتجيء، وتأتي من الأمر ما تأتي، وتدع من الأمر ما تدع؛ لأنها لا تستطيع أن تفعل غير هذا ولا تريد أن تفعل غير هذا، ولأنها تجد في هذا أقصى ما كانت تنتظر من السعادة.

والغريب أنه هو أيضاً قد جعل ينظر إليّ منذ ذلك الوقت نظرات برئت من الطمع والأمل، وقنعت مني بما يقنع به السيد النقي من الخادم النقية، فلا إثم بيننا ولا تلميح إلى الإثم ولا خوف من التورط فيه، وإنما هي حياة نقية بريئة قد استؤنفت بيننا كأنا لم نلتق قبل ذلك الوقت، وكأن أحداً لم يعرف صاحبه قبل تلك الساعة التي أنبأني فيها أنه قد آن لكلينا أن يستريح لأنه نقل إلى القاهرة.

وإني لأدعو أختي حين أخلو إلى نفسي في النهار وحين أخلو إلى نفسي في الليل فلا تستجيب لي صورتها التي كنت أعرفها في المدينة باسمه مشرقة، ولا تستجيب لي صورتها التي عرفتها في بيت العمدة واجمة هائمة، ولا تستجيب لي صورتها التي كنت أراها مطرقة إلى ينبوعها الأحمر، تطيف بها ظلالها الحمراء.

لا تستجيب لي صورة من هذه الصور، وإنما هي ذكرى غامضة حزينة تلذع القلب أحياناً فتندفع لها بعض الزفرات وقد تنهمر لها بعض العبرات، ثم لا تلبث أن تنجاب كما ينجاب السحاب الرقيق، وإذا أنا أعود إلى حياتي المضيئة الهادئة، الحزينة في غير تكلف لحزن أو سرور.

وأنقل مع سيدي إلى القاهرة وأقيم معه في دار أبويه موكلة بخدمته لا أكلف شيئاً غيرها من أعمال الدار، ولا أجد من أبويه إلا برّاً وعطفاً، وإلا رفقاً وحناناً. فأما هو فقد جعل ينظر إليّ كلما تقدمت الأيام كما ينظر إلى الصديق لا كما ينظر إلى الخادم، قد اصطفاني لنفسه، واختصني بوده، وجعل يشركني في كثير من أمره.

يا لله! إني لأحس شبهاً بين هذه الحياة التي أحيها مع هذا الشاب في دار أبويه الفخمة بالقاهرة وبين تلك الحياة التي كنت أحيها مع خديجة في بيت أبويها بمدينة من مدن الأقاليم، لقد عاد الأمر بيني وبين هذا الشاب إلى مثل ما كان بيني وبين خديجة من النقاء والطهر، ألم أخلق إلا لأحيا حياة الأصدقاء!

ولكنها صداقة غريبة هذه التي تقوى وتنمو بين هذا الشاب المترف الغني، وهذه الخادم البائسة التي طالما طمعت فيها نفسه الطامحة، وأغرته بها عواطفه الجامحة،